(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)**) .

[البقرة : ٢٤٦] .

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى**) أي : ألم يصل خبر القوم إليك ؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع ، وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام .

(**إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أي : حين قالوا لنبيهم (شمعون) وهو من نسل هارون ، أقم لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله .

(**قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا**) أي : قال لهم نبيهم : أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه .

(**قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**) قالوا مستنكرين توقع نبيهم : وأي مانع يمنعنا عن القتال في سبيل الله ، وقد أخرجنا عدونا من ديارنا ، وأبعدنا عن أولادنا بالقتل والأسر .

(**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ**) أي : فلما فرض عليهم القتال .

(**تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ**) نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا .

- **قال القرطبي** : وهذا شأن الأُمم المتنعِّمَة المائلة إلى الدَّعَة تتمنّى الحرب أوقات الأنفة فإذا حَضرتِ الحرب كَعَّت وانقادت لِطبعها ، وعن هذا المعنى نهى النبيّ ﷺ بقوله (لا تتمنوا لِقاء العدوّ وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا) .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**) وعيد وتهديد لمن تقاعد عن القتال بعد أن فرض عليه بسؤاله ورغبته ، وأن الإعراض عما أوجب الله على العبد ظلم ، إذ الظلم وضع الشيء في غير موضعه .

الفوائد :

١- الحث على النظر والاعتبار بما يحدث وما يذكر الله من القصص .

٢- تحذير هذه الأمة عن التولي عن القتال إذا كتب عليهم .

٣- أنه لا بد للجيوش من قائد يتولى قيادتها .

٤- الإشارة إلى الإخلاص .

٥- الإشارة إلى قول النبي ﷺ (لا تتمنوا لقاء العدو) .

٦- أن الإنسان لا ينبغي له أن يسأل شيئاً قبل وقوعه .

٧- تحريم الظلم بأنواعه . (الأحد ٣٠ / ١ / ١٤٣٣هـ) .

(**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)**) .

[البقرة : ٢٤٧ – ٢٤٨] .

(**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً**) أي: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا منهم فعين لهم طالوت ، وكان رجلاً من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط فلهذا قالوا :

(**قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا**) أي: كيف يكون ملكًا علينا .

- **قال القرطبي** : جَروا على سنّتهم في تَعْنِيتهم الأنبياء وحَيْدهم عن أمر الله تعالى .
- **وقال ابن عاشور** : وأَنَّى في قوله (أنى يكون له الملك علينا) بمعنى كيف ، وهو استفهام مستعمل في التعجب ، تعجبوا من جعل مِثله ملكاً ، وكان رجلاً فلاحاً من بيت حقير ، إلاّ أنه كان شجاعاً ، وكان أطول القوم .

(**وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ**) أي : لأنا فينا من هو من أولاد الملوك .

(**وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ**) أي: ثم هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء وقيل: دباغًا ، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف .

- **قال أبو حيان** : هذا كلام من تعنتَ وحادَ عن أمر الله ، وهي عادة بني إسرائيل ، فكان ينبغي لهم إذ قال لهم النبي عن الله (**إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً**) أن يسلموا لأمر الله ، ولا تنكره قلوبهم ، ولا يتعجبوا من ذلك ، ففي المقادير أسرار لا تدرك ، فقالوا : كيف يملك علينا من هو دوننا.

(**قَالَ**) أي : نبيهم مجيباً لهم :

(**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ**) أي: اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم. يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك .

(**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**) أي: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبرًا في الحرب ومعرفة بها، أي: أتم علمًا وقامة منكم .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (اصطفاه عَلَيْكُمْ) أي : اختاره ، واختيار الله هو الحجة القاطعة ، ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء : بأن الله زاده بسطة في العلم ، الذي هو ملاك الإنسان ، ورأس الفضائل ، وأعظم وجوه الترجيح ، وزاده بسطة في الجسم الذي يظهر به الأثر في الحروب ، ونحوها ، فكان قوياً في دينه ، وبدنه ، وذلك هو المعتبر ، لا شرف النسب . فإن فضائل النفس مقدّمة عليه .
- **وقال الرازي** : قال بعضهم : المراد بالبسطة في الجسم طول القامة ، وكان يفوق الناس برأسه ومنكبه ، وإنما سمي طالوت لطوله .

وقيل : المراد من البسطة في الجسم الجمال ، وكان أجمل بني إسرائيل .

وقيل : المراد القوة ، وهذا القول عندي أصح لأن المنتفع به في دفع الأعداء هو القوة والشدة ، لا الطول والجمال .

- **قال الرازي** : إنه تعالى قدم البسطة في العلم ، على البسطة في الجسم ، وهذا منه تعالى تنبيه على أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية .
- **وقال ابن عاشور** : قدم النبي في كلامه العلم على القوة لأن وقعه أعظم ، قال أبو الطيب :

الرأي قبلَ شجاعةِ الشجعان --- هو أَوَّلٌ وهي المحل الثاني .

فالعلم المراد هنا ، هو علم تدبير الحرب وسياسة الأمة ، وقيل : هو علم النبوة ، ولا يصح ذلك لأن طالوت لم يكن معدوداً من أنبيائهم .

- **قال أبو السعود** : لما استبعدوا تملُّكَه بسقوط نسَبِه وبفقره ردَّ عليهم ذلك :

أولاً : بأن مَلاكَ الأمرِ هو اصطفاءُ الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم .

وثانياً : بأن العُمدة فيه وُفورُ العلم ليتمكَّنَ به من معرفة أمورِ السياسةِ ، وجسامةُ البدن ليعظُم خطرُه في القلوب ويقدِرَ على مقاومة الأعداءِ ومكابدةِ الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظٍّ وافرٍ.

- **قال الرازي** : واعلم أن القوم لما كانوا مقرين بنبوة ذلك النبي ، كان إخباره عن الله تعالى أنه جعل طالوت ملكاً عليهم حجة قاطعة في ثبوت الملك .
- **قال ابن كثير** : ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه .

(**وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ**) أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه. كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ).

- هذا جواب عن شبهتم ، وتقريره أن الملك لله ، والعبيد لله ، فهو سبحانه يؤتي ملكه من يشاء ولا اعتراض لأحد عليه في فعله ، لأن المالك إذا تصرف في ملكه فلا اعتراض لأحد عليه في فعله .
- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (والله يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاء) فالملك ملكه ، والعبيد عبيده ، فما لكم والاعتراض على شيء ليس هو لكم ، ولا أمره إليكم . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله (والله يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاء) من قول نبينا محمد ﷺ ، وقيل : هو من قول نبيهم ، وهو الظاهر .
- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (والله يؤتي ملكه من يشاء) يحتمل أن يكون من كلام النبي ، فيكون قد رجع بهم إلى التسليم إلى أمر الله ، بعد أن بين لهم شيئاً من حكمة الله في ذلك.

ويحتمل أن يكون تذييلاً للقصة من كلام الله تعالى .

- قوله تعالى (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ) قال الشيخ ابن عثيمين: وليُعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، أي: أنه ليست مشيئة الله مشيئة مجردة هكذا تأتي عفواً، لا، بل هي مشيئة مقرونة بالحكمة، والدليل على ذلك قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله بيّن أن ذلك مبني على علم وحكمة.

(**وَاللَّهُ وَاسِعٌ**) قال ابن جرير : واسع يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير .

- **وقال الخطابي** : الواسع : هو الغني الذي وسع غناه مفاقر عباده ، ووسع رزقه جميع خلقه .
- **وقال السعدي** : الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها ، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، واسع العظمة ، والسلطان والملك ، واسع الفضل والإحسان ، عظيم الجود والكرم .
- فالله عز وجل واسع العطاء ، كثير الإفضال على خلقه ، والخلق كلهم يتقلبون في رحمته وفضله ، يعطي من يشاء ويمنع ، ويخفض من يشاء ويرفع ، بعلمه الذي وسع كل شيء وحكمته .

- (والله واسع المغفرة) ومن سعة مغفرته : أنه يغفر لكل من تاب وأناب مهما بلغت ذنوبه وخطاياه .

قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). وقال حملة العرش عن ربهم تبارك وتعالى (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) .

- والله واسع العلم :كما قال تعالى (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) .
- والله واسع الرحمة : كما قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) ، وقال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) .

(**عَلِيمٌ**) بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، عَلِيمٌ بمن يستحق الملك ، ويصلح له .

(**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ**) يقول نبيهم لهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم.

- **قال الشوكاني** : أي : علامة ملكه إتيان التابوت الذي أخذ منهم ، أي : رجوعه إليكم ، وهو صندوق التوراة .
- التابوت صندوق ، لكن ما هي صفة التابوت الوارد في الآية ، الله أعلم بذلك .

(**فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**) اختلف في المراد بالسكينة ، ورجح الطبري أنها ما تسكن إليه النفوس من الآيات التي يعرفونها .

(**وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ**) اختلف في المراد بالبقية ، قيل : عصا موسى ، وقيل : رضاض الألواح ، وقيل : هي بعض ما تركه آل موسى وآل هارون من ثياب .

- **قال الطبري** : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر عن التابوت الذي جعله آية لصدق قول نبيه ﷺ الذي قال لأمته : " إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا" أن فيه سكينة منه ، وبقية مما تركه آل موسى وآل هارون. وجائز أن يكون تلك البقية : العصا ، وكسر الألواح ، والتوراة ، أو بعضها ، والنعلين ، والثياب ، والجهاد في سبيل الله وجائز أن يكون بعض ذلك ، وذلك أمر لا يدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة ، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم. ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصفة التي وصفنا ، وإذ كان كذلك ، فغير جائز فيه تصويب قول وتضعيف آخر غيره ، إذ كان جائزاً فيه ما قلنا من القول .
- **قال ابن عطية** : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى ، فالمعهود أن الله ينصر الحق والأمور الفاضلة عنده ، والسكينة على هذا فعيلة مأخوذة من السكون ، كما يقال عزم عزيمة وقطع قطيعة .

(**تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ**) قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لكم**) أي: على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت .

(**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**) أي : بالله واليوم الآخر .

الفوائد :

١- تعظيم الأنبياء لله تعالى وحسن أدبهم .

٢- وجوب الإيمان بالقدر .

٣- فضل العلم .

٤- أن الملك يقوى بالعلم وقوة البدن .

٥- أنه كلما كان ولي الأمر ذا سلطة في العلم وتدبير الأمور والجسم والقوة كان أقوم لملكه .

٦- إثبات المشيئة لله .

٧- سعة رحمة الله وعلمه وملكه .

٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الواسع والعليم .

٩- ما في التابوت من الآيات العظيمة .

١٠- أن للسكينة تأثيراً على القلوب .

١١- إثبات الملائكة .

١٢- أن الآيات إنما ينتفع بها المؤمنون .

١٣- فضيلة الإيمان .

١٤- أن الملائكة أجسام .

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)) .

[البقرة : ٢٤٩] .

(**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ**) أي : خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه .

(**قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ**) أي : مختبركم بنهر .

- **قال ابن الجوزي** : ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من له نية في القتال منهم ومن ليس له نية .
- **وقال الرازي** : في حكمة هذا الابتلاء وجهان :

الأول : قال القاضي : كان مشهوراً من بني إسرائيل أنهم يخالفون الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات الباهرة فأراد الله تعالى إظهار علامة قبل لقاء العدو يتميز بها من يصبر على الحرب ممن لا يصبر، لأن الرجوع قبل لقاء العدو لا يؤثر كتأثيره حال لقاء العدو، فلما كان هذا هو الصلاح قبل مقاتلة العدو لا جرم قال (فَإِنَّ الله مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ) .

الثاني : أنه تعالى ابتلاهم ليتعودوا الصبر على الشدائد .

- **وقال القرطبي** : ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم ، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء عُلِم أنه مطيع فيما عدا ذلك ، ومن غلبته شهوته (في الماء) وعصى الأمر فهو في العصيان في الشدائد أحرى .

(**فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي**) أي : من شرب منه فلا يصحبني – وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض غمار الحرب – .

- **قال ابن عاشور** : ومعنى قول طالوت (ليس مني) يحتمل أنه أراد الغضب عليه والبعد المعنوي .

ويحتمل أنه أراد أنه يفصله عن الجيش ، فلا يكمل الجهاد معه .

والظاهر الأول لقوله (ومن لم يطعَمْه فإنه مني) لأنه أراد به إظهار مكانة من ترك الشرب من النهر وولائه وقربه ، ولو لم يكن هذا مراده لكان في قوله (فمن شرب منه فليس مني) غنية عن قوله : ومن لم يطعمه فإنه مني ؛ لأنه إذا كان الشارب مبعداً من الجيش فقد علم أن من لم يشرب هو باقي الجيش .

(**وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي**) أي : ومن لم يشرب منه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي .

- **قال القرطبي** : ولم يقل ومن لم يشربه لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئاً أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات، فلا عِبرة بقدح من يقول : لا يقال طعمت الماء .

(**إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**) أي : لكن من اغترف قليلاً من الماء ليبل عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك .

(**فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ**) أي : فلما وصلوا إلى النهر انكبوا على الماء وأفرطوا في الشرب منه إلا عدداً قليلاً منه صبروا على العطش والحر ، واكتفوا بغُرفة اليد .

- **قال ابن الجوزي** : وفي عدد القليل الذين لم يشربوا إلا غرفة قولان :

أحدهما : أنهم أربعة آلاف ، قاله عكرمة والسدي .

والثاني : ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وهو الصحيح ، لما روي عن النبي ﷺ، أنه قال لأصحابه يوم بدر (أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت) وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً .

- في هذا أن أكثر عباد الله لا ينفذ أمر الله .

وقد روى أحمد والدارمي عن عبد الله بن سلام قال (قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه ، فأنزل الله تعالى (سبح لله ...) حتى ختمها ، قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها) .

والآية إنكار لمن يقول قولاً ولا يفعله ، أو يعد وعداً لا يفي به .

قال القرطبي : قوله تعالى (لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ) استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله ، أما في الماضي فيكون كذباً ، وأما في المستقبل فيكون خلفاً وكلاهما مذموم .

- وفي الآية تعريض بأن العافية لا يعدلها شيء ، وأن السلامة غنيمة ، وأن الأولى أن الإنسان لا يسأل أو يتمنى أمر قد لا يفي بفعله ، أو يلزم نفسه بما لم يلزمه الله به .

- وقد جاءت آيات في معنى هذه الآية :

كقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) .

وقال تعالى (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً) .

وقال تعالى (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

(**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**) أي: فلما عبر طالوت النهر هو والقلة المؤمنة معه – وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً – لملاقاة العدو ، ورأوا كثرة عدوهم وعدتهم .

- فلم يعبر معه إلا المطيع ويدل لذلك أمور :

الحجة الأولى : أن الله تعالى قال (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه) فالمراد بقوله (الذين ءامَنُواْ مَعَهُ) الذين وافقوه في تلك الطاعة، فلما ذكر الله تعالى كل العسكر، ثم خص المطيعين بأنهم عبروا النهر، علمنا أنه ما عبر النهر أحد إلا المطيعين.

الحجة الثانية : الآية المتقدمة وهي قوله تعالى حكاية عن طالوت (فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي) أي ليس من أصحابي في سفري، كالرجل الذي يقول لغيره: لست أنت منا في هذا الأمر، قال: ومعنى (فَشَرِبُواْ مِنْهُ) أي ليتسببوا به إلى الرجوع، وذلك لفساد

دينهم وقلبهم .

الحجة الثالثة : أن المقصود من هذا الابتلاء أن يتميز المطيع عن العاصي والمتمرد ، حتى يصرفهم عن نفسه ويردهم قبل أن يرتدوا عند حضور العدو ، وإذا كان المقصود من هذا الابتلاء ليس إلا هذا المعنى كان الظاهر أنه صرفهم عن نفسه في ذلك الوقت وما أذن لهم في عبور النهر.

(**قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**) أي : لا قدرة لنا اليوم بجالوت وجنوده الأشداء .

- **قال ابن الجوزي** : واختلفوا في القائلين لهذا على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم الذين شربوا أكثر من غرفة ، فإنهم انصرفوا ، ولم يشهدوا ، وكانوا أهل شك ونفاق ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : أنهم الذين قلت بصائرهم من المؤمنين ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

والثالث : أنه قول الذين جاوزوا معه ، وإنما قال ذلك بعضهم لبعض ، لما رأوا من قلتهم ، وهذا اختيار الزجاج .

وقد رجح هذا القول ابن جرير وابن عاشور؛ **وقال ابن عاشور:** وقد دل قوله (فشربوا منه) على قِلة صبرهم، وأنهم ليسوا بأهل لمزاولة الحروب، ولذلك لم يلبثوا أن صرحوا بعدَ مجاوزة النهر فقالوا (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) فيحتمل أن ذلك قالوه لما رأوا جنود الأعداء، ويحتمل أنهم كانوا يعلمون قوة العدو، وكانوا يسرون الخوف ، فلما اقترب الجيشان، لم يستطيعوا كتمان ما بهم.

(**قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ**) أي : قال الذين يوقنون بلقاء الله ، مذكرين لإخوانهم بالله وقدرته .

- معنى الظن هنا اليقين . والظن يطلق على اليقين .

كما في قوله تعالى (وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً) أي: فأيقنوا، وكقوله تعالى (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّيْ مُلاقٍ حِسَابِيَهْ) .

(**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**) كم من جماعة قليلة مؤمنة صابرة ، غلبت – بإذن الله – وأمره – جماعة كثيرة كافرة باغية .

- **قال الرازي** : المراد منه تقوية قلوب الذين قالوا (لاَ طَاقَةَ لَنَا اليوم بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ) والمعنى أنه لا عبرة بكثرة العدد إنما العبرة بالتأييد الإلهي ، والنصر السماوي ، فإذا جاءت الدولة فلا مضرة في القلة والذلة ، وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعدة.

- **قال القرطبي** : هكذا يجب علينا نحن أن نفعل ، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدّام اليسير من العدوّ كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاريّ: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم.

وفي المسْند أن النبيّ ﷺ قال (هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم) فالأعمال فاسدة والضعفاء مُهْمَلون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال الله تعالى (اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ واتقوا الله) وقال (وَعَلَى الله فتوكلوا) وقال (إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ) وقال (وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ) وقال (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ) .

فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا! بل لم يبق من الإسلام إلى ذكره ، ولا من الدِّين إلاّ رَسْمُه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدوّ شرقاً وغرباً براً وبحراً ، وعَمّت الفتن وعظُمت المحَن ولا عاصم إلا من رحِم .

(**وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين**) بنصره وتوفيقه وتأييده .

قال الرازي : يحتمل أن يكون هذا قولاً للذين قالوا (كَم مّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ) ويحتمل أن يكون قولاً من الله تعالى ، وإن كان الأول أظهر.

الفوائد :

١-يجب على القائد أن يمنع من لا يصلح للحرب كالمخذل والمرجف .

٢-أن من الحكمة اختبار الجند ، ليظهر من أهل للقتال ، ومن ليس بأهل .

٣-أن أكثر عباد الله لا ينفذ أمر الله .

٤- أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ تَعَالَى وَالتَّصْدِيقَ بِلِقَائِهِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ فِي مَوَاقِفِ الْجِلَادِ؛ فَإِنَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِأَنَّ لَهُ إِلَهًا غَالِبًا عَلَى أَمْرِهِ يَمُدُّهُ بِمَعُونَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ .

٥- أن القليل من الناس من يصبر عند البلوى .

٦- أهمية اليقين وأنه يحمل الإنسان على الصبر والتحمل .

٧- إثبات ملاقاة الله .

٨- أنه قد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة .

٩- فضيلة الصبر .

١٠-إثبات المعية لله تعالى .

(وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)) .

[البقرة : ٢٥٠ – ٢٥٢] .

(**وَلَمَّا بَرَزُوا**) أي : ولما واجه حزب الإيمان – وهم قليل – من أصحاب طالوت .

- **قال الشوكاني** : أي لما صاروا في البراز وهو المتسع من الأرض .

(**لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**) وشاهدوا ما هم عليه من العَدد والعُدد وأيقنوا أنهم غيرُ مطيقين لهم عادة .

- جالوت أمير العمالقة .

(**قَالُوا**) داعين ربهم .

كما قال تعالى عن أولئك (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين) وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ في كل المواطن ، وروي عنه في قصة بدر أنه عليه السلام لم يزل يصلي ويستنجز من الله وعده ، وكان متى لقي عدواً قال (اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم " وكان يقول (اللهم بك أصول وبك أجول) .

(**أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً**) أي : أنزل علينا صبراً من عندك .

(**وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**) أي : في لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز .

(**وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**) أي : وانصرنا بعونك وتأييدك على القوم الكافرين .

وفي هذا تنبيه على أن قتالهم إياهم إنما هو لوصف كفرهم لا لغرض دنيوي .

(**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ**) أي : غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ، بإذنه تعالى الكوني القدري .

وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ) أي : وقتل داود – عليه السلام – جالوت قائد الجبابرة .

(**وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**) مع النبوة .

قال ابن الجوزي : يعني آتى داود ملك طالوت .

(**وَالْحِكْمَةَ**) قيل النبوة ، وقيل : الزبور .

(**وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**) أي : مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ .

من ذلك ما ذكره تعالى في قوله (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مّن بَأْسِكُمْ) .

وقال (وَأَلَنَّا لَهُ الحديد . أَنِ اعمل سابغات وَقَدّرْ فِي السرد) .

قال تعالى حكاية عنه (عُلّمْنَا مَنطِقَ الطير) .

وقال تعالى (وَءاتَيْنَا دَاوُودُ زَبُوراً) وذلك لأنه كان حاكماً بين الناس ، فلا بد وأن يعلمه الله تعالى كيفية الحكم .

(**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**) أي : لولا يدفع عن قوم بآخرين ، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

- **قال أبو حيان** : والذي يظهر أن المدفوع بهم هم المؤمنون، ولولا ذلك لفسدت الأرض، لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها، ولكنه تعالى لا يخلي زماناً من قائم يقوم بالحق ويدعو إلى الله تعالى، إلى أن جعل ذلك في أمّة محمد ﷺ .
- **وقال الزمخشري** : لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ، ويكف بهم فسادهم ، لغلب المفسدون ، وفسدت الأرض ، وبطلت منافعها ، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض. انتهى.

(**وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**) أي : منّ عليهم ورحمة بهم ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً ، وله الحكم والحكمة ، والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله .

(**تِلْكَ**) أي : المذكورات من إماتة الألوف وإحيائهم وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام جالوت وقتل داود إياه وتملكه .

(**آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ**) أي : هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم (نتلوها عليك) أي : ننزل عليك جبريل بها .

(**بِالْحَقِّ**) أي : بالواقع الذي كان عليه الأمر ، المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق ، الذي يعلمه علماء بني إسرائيل .

(**وَإِنَّكَ**) يا محمد .

(**لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) خطاب للرسول ﷺ تنويهاً بشأنه وتثبيتاً لقلبه ، وتعريضاً بالمنكرين رسالته، وتأكيد الجملة بأنَّ للاهتمام بهذا الخبر، وجيء بقوله (من المرسلين) دون أن يقول: وإنك لرسول الله، للرد على المنكرين بتذكيرهم أنه ما كان بدْعاً من الرسل، وأنه أرسله كما أرسل من قبله ، وليس في حاله ما ينقص عن أحوالهم. (تفسير ابن عاشور) .

وقال رحمه الله: تذكير بأنّ إعلامه بأخبار الأمم والرسل آية على صدق رسالته، إذ ما كان لمثله قِبَلٌ بعلم ذلك لولا وحي الله إليه، وفي هذا كلّه حجة على المشركين وعلى أهل الكتاب الذين جحدوا رسالة محمد ﷺ .

- **قال القاسمي** : وفي هذه القصص معتبر لهذه الأمة في احتمال الشدائد في الجهاد كما احتملها المؤمنون في الأمم المتقدمة ، كما أن فيها تسلية للرسول ﷺ من الكفار والمنافقين ، فكأنه قيل : قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء عليهم السلام في بني إسرائيل من الخلاف عليهم والرد لقولهم ، فلا يعظمن عليك كفر من كفر بك ، وخلاف من خالف عليك لأنك مثلهم ،

وإنما بعث الكل لتأدية الرسالة ولامتثال الأمر على سبيل الاختيار والطوع ، لا على سبيل الإكراه ، فلا عتب عليك في خلافهم وكفرهم . والوبال في ذلك يرجع عليهم .

الفوائد :

١- أن من تمام العبودية أن يلجأ العبد إلى ربه عند الشدائد .

٢- أن التجاء الإنسان إلى الله عند الشدائد سبب لنجاته .

٣- اضطرار الإنسان إلى ربه في تثبيت قدمه .

٤- أن من صدق اللجوء إلى الله وأحسن الظن به أجاب الله دعاءه .

٥- شجاعة داود حيث قتل جالوت .

٦- أن الأنبياء ليس عندهم من العلم إلا ما علمهم الله .

٧-أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض لتصلح الأرض .

٨- إثبات حكمة الله تعالى .

٩- إثبات فضل الله على جميع الخلق .

١٠- أن القرآن كله حق من الله .

١١- إثبات رسالة النبي ﷺ .

١٢- أن هناك رسلاً غير الرسول .